

# أندلسيات لجروح العراق

. بشرى البستاني .

دبابات الغزو تدور .	ثانيةً يُوغِلُ هولاًكو في قمصانِ المدن	حنينُ البوح
تسائلني الأسلحةُ العزلاءُ عن السرِّ	التعبي .	مختنقٌ خلفِ سديمِ الكلمات .
وأسألها عن نبضِ الفجرِ	ثانيةً يَقْطَعُ هولاًكو	بينِ الينبوعِ
وأجنو عند خزائنِ بغدادِ وآشورِ،	شريانَ الحبرِ الأسودِ .	وبينِ المشهدِ
أُمسكُ قلبي من وجعِ التفاحِ	هولاًكو يترصّدني،	قمرٌ أسودٌ،
عناقيدُ النخلِ على الأعوادِ .	يَقْطَعُ رأسي،	ونجومٌ من طينٍ تعدو في الفلوات .
الكابوسُ يعاودني،	يُودِعُه في صندوقٍ مقفلٍ،	...
أشهُقُ في قاعِ الجبِّ	يرميه في البحرِ .	دباباتُ الغزو تدور .
وأبحثُ عن سيّارةِ أهلي .	يدور البحرُ،	فوق الدبّابةِ قبرِ رسولِ الله يصيحُ:
أسألُ غصنينِ ينامان	اللعبةُ ترتدُّ على نحرِ البارجةِ	غشاءِ السيلِ،
على صدري ..	الأمريكية .	الليلِ،
عن سرِّ الجليلِ الصامتِ في قلبِ	تتحرّرُ من قلبي لغتي	دقاتُ الساعةِ تنهضُ من خَصرِ
الصحراءِ .	أطلقها نحو الصفصافِ،	خريفٍ من كهفِ
أرقى درجاتِ الوجدِ	وأبكي ..	صار سريراً للموتِ،
مغمضةُ العينينِ	...	ومن مدخنةِ حيرى فوق سقوفِ
وأُمسكُ بَرَقَ البلّورِ .	دباباتُ الغزو تدورُ .	الكلماتِ
...	الأسئلةُ الخرساءُ	يستدرجني الصيفُ إلى الوردِ الخدّاعِ
دباباتُ القتلِ تدورُ .	تدوي ..	وأستدرجه نحو سرابٍ محتدمٍ
بغدادُ ..	صندوقُ الدنيا	بعيونِ القتلى .
سمرقند .	خبأً عاصفةً يَنشرها الموتُ	الأعمى يُبصرُ عطرَ النارجِ،
غرناطةُ تنهد .	على حبلِ غسيلٍ يرميه الشهداءُ	فأقفلُ نافذتي،
	نحو الوديانِ .	وألوذُ بظلِّ حباتِ ليلٍ يُسدلها الليلُ

فوق حفيفِ الجرحِ المتدثرِ بالدغل  
تدهمني عينك وتعطيني السرّ،  
أطف من ومضتها العطر،  
ينقطع التاريخُ الأخضرُ  
بين جذورِ الصبوةِ  
والأغصانِ .  
...  
دباباتُ الغزو تدورُ .  
يلوُّثُ ثوبي نفثُ الدباباتُ  
تثقبُ روحي عينَ الأمريكيِ الرافلِ  
بالزبدِ  
القابعِ خلفِ دروعِ العرباتِ  
أزرارُ قميصِ الأمريكيِ  
دموعُ الليلِ على مقلِّ العذراواتِ .  
هديرُ الدباباتِ  
يزرعُ في قلبِ الأرضِ  
دموعاً أخرى .  
...  
دباباتُ السلبِ تدورُ .  
تفتشُ كفُ الأمريكيِ جيوبَ الصحراءِ  
تجوُّ فوقِ عرينِ الزيتِ الأسودِ .  
يسكتُ صوتُ الرعدِ

فيه، وتخبو النيران .  
تبكي الطيرُ حواليه،  
وتشتعل الأغصان  
حول الدبابةِ يعتركُ الركبانُ .  
جاءت ..  
ذهبتُ  
دخلتُ  
حزنتُ  
وتدلّني من ثقبِ الشمسِ حصانٌ ميّتُ  
صهوته سدّت وجهَ الشرقِ  
ووجهَ الغربِ .  
فوق الصهوةِ  
كانت ومضةُ عينك تدعوني  
لوليمةِ حُبّ .  
...  
دباباتُ الغزو تدورُ .  
يشتعل البحرُ على خصرِ الصحراءِ .  
النخلُ على صدرِ البدويةِ  
ترخي في الفجرِ ضفائرها،  
تفتحُ ساعدها للنجمِ الكذابِ  
فيخجلُ وردُ الليلِ

ويرتدّ الشجرُ المطعونُ ببرقِ النايات .  
جبالٌ تفتح في حزني معطفها،  
وطيورٌ تأكلُ من ياقوتِ الحلمِ .  
قبورُ الشهداءِ  
تنهضُ في الفجرِ،  
وتهبطُ للنهرِ .  
يماّمُ أخضرٌ يتبعها  
ويحفّ بها النرجسُ،  
ينثال عليها الطلُّ الأخضرُ .  
باسقةٌ أوجاعُ الشجرِ الباذخِ  
طلّعُ الحزنِ نضيدٌ ..  
تبكي الأرضُ من الحمى .  
...  
دباباتُ الغزو تدورُ .  
شواطئُ دجلةٍ غرباءُ،  
انفضّ السمارُ  
حواليها ..  
السّمكُ الميّتُ يعلو ضفّتها،  
الطحلبُ كدّر صفو الماءِ .  
تبكي دجلةُ في قلبِ الليلِ .  
زفيرُ الثعبانِ يريقُ النارَ  
على أعمدةِ الكونِ .

سريرُ العنقاءُ

محمولٌ بيدِ الزوبعةِ الصفراءِ .

وقلبُ الليلِ

يَنزِفُ أندلساً أخرى .

وفلسطينَ ..

تَطْلُعُ من عينِ غزالٍ

زنبقةٌ تطفئُها الشمسُ .

غبارُ الطلقاتِ الخلبِ يُوجعُ قلبَ

الأرضِ .

يتكئُ الزيتونُ على وردِ الشيخِ

ويبكي .

...

دبّاباتُ الحقدِ تدور .

غرناطةٌ تعدو في قمصانِ الليلِ،

يلاحقها الذئبُ التتريُّ .

تصلُ البصرةُ،

يوقفها الأمريكيُّ على السلكِ

الشائكِ،

تَرْحَفُ في ذي قارِ

بين جذورِ النخلِ الممتدةِ من أوتارِ

الحزنِ بسومرَ،

حتى قلبِ النارِ .

وعراقُ الأروقةِ الجذلي ينزف في

الأغلالِ

حقلُ الزيتونِ الغارقِ في قطرةِ دمعِ

يتحدّاهم في القمرِ الطالعِ

خلفِ الدارِ .

جنائنُ بابلَ ظمأى،

يرتعشُ الصمتُ على شفتيها،

وعلى كتفيها يذوي الوردُ .

وطواحينُ فراتٍ تَطْلُعُ من خاصرةِ الوجدِ

تلمّ شظايا الموتِ

عن الأدغالِ .

...

دبّاباتُ السِّلْبِ تدور .

في حجراتِ المشفى

يقتنصُ الأمريكيُّ غطاءَ الموتى .

يعدو في الردهاتِ، وعبْرَ النارِ،

المَرَضَى .

تنهضُ في مفترقِ الطرقِ الليليةِ

أشباحُ القتلى .

نُهبتُ في غبشِ الفجرِ مقابرهم،

وارتجت تحت عويلِ الريحِ

جروحُ ما زالت تنزف في أحشاءِ

الليلِ .

قالَ الجبلُ الباذخُ للوردةِ:

« ضُمِّني ... »

واجتاحهما السيلُ .

...

دبّاباتُ الغزو تدورُ .

معابرُ بغدادِ تبكي .

الأنهارُ،

الأسماكُ،

الشرفاتُ

تبكي .

وقبورُ بني العباسِ

أَتعبها زحفُ العرباتِ على قلبِ

الأرضِ .

الآبَاءُ

يُخْفونَ الطَّلقاتِ بصدرِ العذراواتِ؛

ضفائرهنَّ على الرملِ

يُخضِبها الدمُ؛

وجعٌ - في أعينهنَّ - عراقيُّ .

دمعٌ ..

وجلُّ مما كانَ،

وما سوف يكونُ .

هبطَ المرجانُ من الدوحِ

هل قلت: الموت..  
علمُ السيمياء  
خجلٌ من ضوضاء الموتى!  
...  
دبّاباتُ الغزو تدور.  
فراشاتُ الفجر يطرّزن مناديلَ الحزنِ  
لأطفالٍ مقتولين،  
ويعطّرن غلائلَ للشهداء.  
شمسٌ عشرون انطفأت،  
وليالٍ عشرون  
عبرت.  
أقمارٌ عشرون انكسرتُ في شجر  
الدمع الأصفر.  
مَنْ ذا خلفَ البابِ؟  
شهوداتٌ بعباءاتٍ بيضاء وأجنحةٍ  
خضري  
يَدلّفن إلى غاباتِ النخلِ  
يخبئن سلاحَ الفرسانِ.  
شهوداتٌ بعيون حوراءَ  
يظللّها غيمُ الفقدانِ  
ويثقلها الوجدُ.  
رذاذُ الموت

ينثال على قممِ الصخر.  
وفي الوديان  
شمعٌ يذبل خلف ستائر بغداد؛  
نسماتُ الحزن على أشجار الليمون؛  
نبوخذ نصرٌ والخلفاء  
بجلالٍ يَبكون بصمتِ الليلِ.  
...  
دبّاباتُ الموتِ تدورُ.  
تداهمني عيناكُ  
بريقٌ أخضرٌ يغزوني في عزّ الليلِ.  
أفتحُ بابي  
يَدْخُلُ عطركُ..  
يَكْبُرُ..  
يَنشرُ أجنحةَ التفاحِ  
تهوي الألواحُ على مائدةٍ ظمأى  
يشتمعل الوردُ برملِ الحزنِ وأردانِ  
النخلِ  
ويغادرني المحتلُّ.  
...  
دبّاباتُ الغزو تدور.  
يحاصرها الغيمُ  
وتُربكها الرياحُ.

غبارُ الصحراءِ المجروحُ يعاود ذبحي.  
كفّني ثوبُ الجبلِ الفضيّ،  
حفيفُ الصّفصافِ  
سدري.  
تنشقّ الأرضُ عن الشارةِ،  
تعطيني وهجَ الزنبقِ في عزّ الظهرِ  
وأعطيها قمري.  
يتلألُ فوقِ غلائلِ عمري  
دمكُ الياقوتيّ.  
أكفكُ كانت وسطاً هديرِ الدبّاباتِ  
تطوّقُ خصري؟!  
...  
دبّاباتُ الحقدِ تدور.  
قميصُ حبيبي في أعلى الدبابةِ.  
أعدو خلف عبيرِ العرقِ المتصبّبِ من  
كتفيه،  
وراء عناقيد الرطّبِ المصلوبِ على  
عينيه.  
حبيبي يركض خلف رواقِ أخضر،  
خلف شتاءِ صهوته الحبُّ  
وصبوته الطيرُ الواكنُ في العشبِ.  
حبيبي يحتملُ وسط عويلِ الرياحِ

أوراد الأرض	وضياءٍ مثقوبٍ .	يسبتلقي الحوتُ على الضفةِ التعبي
وحكمةُ ربّانٍ مجروح .	والقفصُ الأسودُ يعلو في الأفق ،	ويغيم الياقوت .
...	القفصُ الأسودُ يقتنصُ الشرقَ .	عرباتُ الحقدِ تدورُ
دبّاباتُ الغزو تدور .	الموجةُ تعلو	تسدُّ نوافذَ بيتي ،
فوق الدبّابة زنارٌ مقطوع ،	وتداهم رأسينا .	تدْهمني الشمسُ بعزّ الليلِ ،
عطرٌ صحراويٌّ يتدحرجُ في	...	فأبكي .
المنعطفاتِ	دبّاباتُ الغزو تدور .	كفُّ تتسلل ،
تلاحقه العربات .	فوق الدبّابة منديلٌ لحبيبينِ التقيا	تفتُحُ صدري للنور
فوق الدبّابة دجلةٌ لوحٌ من طين ،	وسط عباب القصفِ	فيرتعب الديجور .
وغبارُ الحزنِ أنينٌ .	وتحت النيرانُ .	أصحو في الفجرِ على صوت
الوردُ المتلعثمُ تحت الأسلاكِ	« ضَمِينِي ، » قال لها ..	الإطلاقاتِ
يَشْهَقُ :	فأنْهَمَرَ البجعُ الأبيضُ من عينيها	ألمُ شطايا العتمة فوق سريري .
نيسان لهاتُ الجرح المتخثر	وتوارى الغيمُ	يتساءل طفلٌ في شرفة قلبي
في قعر الأقداح	تحت عباؤها .	عَمّا يفعله الأمريكِيُّ
تدْهمه العرباتُ الليليةُ	قالت : « خذني »	على البوابات .
والصفاراتُ	وانفضّ الغربان .	...
تهدم أبراجَ الحلم على شفة الفجر	...	دبّابات الحقدِ تدور
الملقى بين الأسلابِ	دبّاباتُ الغزو تدور .	منكفئُ مثل حصان مهجور
وتحت حوافر خيلٍ غرثي ،	تسدُّ عبابَ البحرِ .	جرحي ..
بين رسائلٍ مفتوحة	الموجُ	تَلْفحه الشمسُ العربيةُ
يتأول أسطرها العليجُ القادمُ من	يقتمح القافلةُ السوداءَ	يَنْخره الدود .
باحاتٍ عاريةٍ	فتمطرها الغيمةُ أحرأشاً .	بيكاسو يرسم جرنیکا أخرى ،

يَرسَمُ بَغدَادَ طَريحَةَ أَقدامِ الغوغاءِ  
والحريةَ عوداً  
يَعزِفُه القَزَمُ المُوؤودَ .  
ألواحُ متاحفِ بَغدَادَ بِكفِّ الرِّيحِ ،  
والثورُ الآشوريُّ الباسمُ مرتعبٌ  
غادرَ مرتبِكاً  
وبِكى  
في أركانِ المتحفِ والمنعطفاتِ  
كانت قيثاراتُ  
سومرَ تعزفُ لحنَ الحزنِ .  
...  
دَبَّاباتُ السلبِ تدورُ .  
بَغدَادَ تنامُ على عَطبِ الوردِ  
وأَسلابِ البياقوتِ .  
مرجانُ مآذِنِها في أيدي السَّلابيةِ ،  
والقرنُ الحادي والعشرونُ منكفيٌّ  
يرتجفُ الخجلُ الأصفرُ في شفتيهِ .  
الجرحُ رمادُ ،  
عطرُ الشَّيخِ على الأعوادِ .  
صريحُ الليلِ ،  
صهيلُ الخيلِ ،

نشيجُ الحورياتِ  
بَغدَادُ ،  
اللوعاتِ ،  
العبراتُ  
الطعناتِ ،  
ظَهْرُكَ يَنزِفُ ،  
مفتاحُكَ ثانيةٌ في جيبِ الأمريكيِّ  
يخضُّبه الدمُ .  
يا ويلي !  
قمرُ الحلمِ  
صارَ وسادةً ،  
وعظامُ الأطفالِ وقودَ .  
...  
دَبَّاباتُ الموتِ تدورُ .  
الأكمامُ ،  
الشبكاتُ ،  
أولادُ الأفعى وزُناةُ العصرِ .  
لهيبُ النارِ يَطُولُ صفوفَ الأطفالِ  
تتوجَّعُ دهشتهمُ  
تَفْتَحُ أعينها في الصبحِ حقائبهمُ .  
كتبُ الأطفالِ ،

دَفاتِرُهُم  
تتلقَّت حيرى ،  
الجندي الأمريكيُّ  
يُطلقُ ناراً فوق جبينِ صبيِّ  
منتفخِ الصدرِ .  
سَقَطَ الطفلُ ببركةِ دمِ .  
إذ فكَّوا صدره ،  
كانت أرغفةُ الخبزِ  
تَنزِفُ تحت قميصه !  
...  
دَبَّاباتُ الغزوِ تدورُ .  
فوق الدبابة رَفَّتْ سَعْفَةُ نخلِ  
وسؤال  
يستدرج من قلب الطين طيورَ الحبِّ .  
يناولني كأساً صفراءَ .  
الأرضُ مشاكسةٌ ،  
والسيركُ  
تحرَّكةُ الزوبعةِ السوداءُ  
« مهرِّجُ آخرِ هذا الليلِ  
لا يَصْلِحُ للظهِرِ . . . »  
هذا ما قالته امرأةُ

كان صهيلُ أخرسُ يلبسُ معطفَها  
يَحرسُ في الليلِ دموعَ غوايتها .  
« لن أستسلم، » قالت  
وانبثق الماءُ الأخضر  
من كفيها .  
...  
دبّاباتُ الغزو تدور .  
المتنبي يُشعلُ أشجارَ الكوفةِ،  
والأقمار  
تتساقط في قاعِ الجبِّ،  
نجومٌ تنشجُ في زاويةِ البستانِ،  
وسائدُ بنتِ السلطانِ  
يخضّبها الدم .  
يا ويلَ الغالبِ من مغلوبيه!  
حبيلُ الشمسِ الغاربِ  
يَنشجُ خلفَ الأغصانِ .  
...  
دبّاباتُ الغزو تدور .  
أبو تمامٍ يَنشرُ بأثيَّتَهُ  
فوقِ ضفافِ الكرخِ .  
الدباباتُ  
ضيدقتُ في كُتبِ العرَافاتِ .

انكسرتُ مقلُ العذراواتِ  
على شرفِ الجسرِ .  
الخلجانُ  
تجمعُ أرديةَ الريحِ من المنعطفاتِ  
وتعطي الفجر  
كلماتٍ تَرحفُ من حرقِ الباءِ  
إلى دالِ الوجدِ،  
والنقطةُ يأسرها وجعُ الغزلانِ .  
دجلةُ تَرحفُ في كبدِ النيرانِ،  
فيرتعبُ الجندُ  
من فوحِ شذوى يَطلعُ من وجناتِ  
الصخرِ  
يجتاحُ حريرِ الماءِ،  
وأطرافِ ربيعِ مقفلِ  
يبحثُ عن قمرٍ للفلواتِ  
وعن سرِّ للفعلِ  
كي ينجو هذا الحجرُ المعقودُ  
على جبهاتِ الغدِّ .  
...  
دبّاباتُ الغزو تدور .  
السيّابُ يشكّلُ رأسًا يَنزفُ منه  
الحلمُ،  
ويخططُ حورياتُ تعدو بين النخلِ  
وتُشعلُ في أذيالِ النهرِ النارِ .  
تسعى في شطّ العربِ الأفعى،  
في فمها تَحملُ مفتاحاً  
تَحملُ إبليسَ إلى آدمَ .  
ظهرُ الحوتِ سؤالُ  
يهوي فوقِ السنبلِ  
يبحثُ عن خلجانِ أخرى  
وخنادقَ لم تُقهرَ بعدُ .  
السيّابُ . .  
يعزفُ أغنيةَ الأمطارِ / وآبُ  
مندهشٌ من رملٍ يتأملُ أحذيةَ الجندِ  
الأمريكيةِ  
كيف تصيرُ قواقعُ!  
كيف يصيرُ عراقُ الأبنوسِ  
خرائطَ في كفِّ تطويه  
وتنشرهُ / باسمِ الحريةِ تهوي الأبراجُ .  
التمثالُ يغادرُ شطّ العربِ،  
البصرةُ تَجرحُ معصمَها  
كي لا تغفو في زاويةِ الخندقِ!  
والسيّابُ . .

يَرْفَعُ فَوْقَ سَنَاشِيلِ الْحَزَنِ

جِرَاحَ وَفِيقَةَ

تَتَبِعُهُ الْأَشْجَارُ .

...

دَبَابَاتُ الْغَزْوِ تَدُورُ .

فَوْقَ الدَّبَابَةِ خَاتَمٌ أَنْثَى

يَلْمَعُ فِي وَهَجِ الشَّمْسِ

وَيُرْقَى عِبْرَ سَلَالِمٍ تَعْرِفُ حَزْنَ

الْقَدَسِ .

مِرْدَاةُ الْحَزَنِ طَحُونٌ

يَتَّقِبُ عَطَرَ اللَّيْلِ هَدِيرَ الطَّيَارَاتِ

وَهَمَّهُمَّةُ الْجَنْدِ .

الْمَوْصِلُ تُوجِعُهَا ثَرْتَرَةُ الْعَرَبَاتِ ،

الرِّيْحَانُ يَفْتَحُ قَلْبَ الْمَوْسِيقَى

فِي غُورِ اللَّيْلِ .

يَطْلُعُ وَرْدٌ فِي خِصْرِ الْجَبَلِ الْفِضِيِّ

وَيَسْقُطُ تَمَثَالُ

تَشْرَبُ رِغْوَتَهَا الْأَشْجَارُ .

...

دَبَابَاتُ الْغَزْوِ تَدُورُ .

فِي أَعْلَى الدَّبَابَةِ زَهْرَةٌ فُلٌّ

مِنْ بَسْتَانِي .

« مَنْ قَطَعَ الزَّهْرَةَ؟ »

مَنْ أَعْطَاهَا الْجَنْدِيُّ الْأَمْرِيكِي؟

قَالَتْ عَنْ بَعْدٍ وَهِيَ تَفُوحُ

مِنْ بَابِ الشَّمْسِ : « سَاطِعُ ثَانِيَةً

لَأَعُودُ

نَحْوَ تَرَابٍ يَنْهَضُ مِنْ أَرْضِيَّةِ الْحَمَى

وَيَلْمُ شَطَايَا الرُّوحِ . »

...

دَبَابَاتُ الْغَزْوِ تَدُورُ .

فِي مَائِدَةٍ قَرِيبِي ، الْأَمْرِيكِيَّةُ كَانَتْ

تَفْتَحُ تَحْتَ الشَّمْسِ ضِفَائِثَهَا

وَتَشَكُّلُ مِنْ خُصَلِ الشَّعْرِ

أَرْوَقَةٌ

دَوْلًا ،

وَخِرَائِطَ أُخْرَى .

وَمَجْنَدَةٌ عَاشِرَةٌ ،

كَانَتْ تَتَأَمَّلُ فِي وَهَجِ الشَّمْسِ

مَغَاذِلَهَا .

قَلْبُ الْأَرْضِ يَدُورُ عَلَى سَاقِ عَرَجَاءَ ،

وَالْأَفْقُ

ثَعْبَانٌ يَتَلَوَّى فِي ظَهْرِ مَعْتَمِ .

وَالشَّمْسُ الْعَرَبِيَّةُ سُودَاءُ

كَانَتْ عِبْرَ نَوَافِذِ بَيْتِي

تَبْكِي فِي عَزِّ الصَّيْفِ .

...

دَبَابَاتُ الْغَزْوِ تَدُورُ .

اللَّيْلَةُ أَكْتُبُ حَزْنِي

فَوْقَ جَذُوعِ الْجُوزِ ،

وَأُبْصِرُ صَخْرَ الْقَدَسِ

يَتَدَحَّرُ فَوْقَ مَآذِنِ بَغْدَادَ .

أَخْبِيءُ جِرْحِي فِي قَلْبِ ضَمِيرِ

الْحَيْمَةِ .

دَمْعُ التَّفَاحِ دَمٌّ

يَتَخَثَّرُ فِي كَاسِ عَطَشِي

نَهْرَانِ يَدُورَانِ عَلَى جِيدِ الْبِسْتَانِ ،

يَصِلَانِ

بَغْدَادَ بَعكَا .

مَرْهَقَةٌ بَغْدَادُ ،

وَمَجْرُوحٌ مَعْصُمُهَا ،

سُرُّ الرُّمَّانِ عَلَى وَجْنَتِهَا

يَذُوي فِي الْأَصْفَادِ .

الموصل (العراق المحتل)